الفصل الأول

كان يوماً بارداً من أيام نيسان بسمائه الصافية، وكانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد الظهر، عندما كان ونستون سميث، بذقنه المنكفئة على صدره اتقاءً لريح باردة، ينسل مسرعاً عبر الأبواب الزجاجية لمبنى النصر، ولم يحل اندفاعه السريع دون دخول دوامة من الريح المحملة بذرات الغبار.

كان الممر الذي يحاذيه عابقاً بروائح الملفوف المسلوق والفرش المهترئ، وعند نهاية هذا الممر عُلّقت صورة ملونة وذات حجم كبير لا يتناسب مع مثل ذاك الممر الضيق، وكانت تمثّل وجهاً ضخماً يربو عرضه على المتر، وهو وجه رجل في الخامسة والأربعين، ذو قسمات جميلة وإن كانت لا تخلو من خشونة وصرامة، ويبرز فيه شاربان أسودان كثّان. مشى ونستون باتجاه السلالم للصعود، فالمصعد نادراً ما كان يعمل، إما بسبب عطل وإما لانقطاع التيار الكهربائي معظم ساعات النهار، انسجاماً مع خطة توفير الطاقة استعداداً لفعاليات «أسبوع الكراهية». كانت الشقة التي يقصدها ونستون في الطابق السابع وكان عليه أن يصعد سلماً طويلاً، ولأنه في التاسعة والثلاثين من عمره ويشكو من دوالٍ فوق كاحله الأيمن، فقد راح يرتقي درجات السلم بخطى وئيدة متوقفاً للاستراحة عدة مرات. وعند كل منعطف من منعطفات السلم السبعة، وعند كل محطة من محطات المصعد وبمواجهة الباب، كانت

Books-sea.com

تنتصب صورة الوجه الضخم لتحدق في وجه كل قادم. إنها واحدة من تلك الصور المرسومة على نحو يجعل المرء يعتقد أن العينين تلاحقانه أينما تحرك. وكان يوجد أسفل تلك الصورة عبارة بارزة تقول: «الأخ الكبير يراقبك».

عندما دخل ونستون إلى الشقة سمع صوتاً يسرد قائمة أرقام تتعلق بإنتاج الحديد الخام، وكان الصوت ينبعث من لوحة معدنية مستطيلة الشكل تشبه مرآة معتمة معلّقة على الحائط الأيمن. أدار ونستون مفتاحاً فخفتت حدة الصوت قليلاً وإن ظل الكلام واضحاً كان بمقدور ونستون تخفيض صوت هذا الجهاز والذي كان يسمى «شاشة الرصد»، ولكن لم يكن بوسعه إيقاف تشغيله بشكل تام. انتقل ونستون نحو النافذة بجسمه النحيل الضئيل الذي زاد من ضآلته الزي الأزرق، وهو لباس الحزب، وكان شعره مائلاً للشقرة ووجهه شديد الاحمرار، أما بشرته فكانت مخشوشنة من أثر الصابون الرديء وشفرات الحلاقة غير الحادة وبرودة فصل الشتاء الذي كان قد شارف على نهايته.

وعلى الرغم من أن زجاج النافذة كان موصداً، فقد كان الجو خارجها يبدو بارداً، وفي الشارع كانت زوابع الرياح تثير الغبار والأوراق الممزقة فتتصاعد لأعلى في أشكال حلزونية. ورغم أن الشمس كانت ساطعة والسماء داكنة الزرقة فقد بدا كما لو أن كل الأشياء قد طمس لونها، ما خلا تلك الصور التي كانت معلقة في كل مكان. فمن كل زاوية كان ذلك الوجه ذو الشارب الأسود يطل محدقاً في وجه المارة. وعلى واجهة المنزل المقابل كانت تنتصب واحدة من تلك الصور المكتوب تحتها بأحرف بارزة عبارة «الأخ الكبير يراقبك»، وكانت العينان السوداوان تنفذان إلى أعماق ونستون. وفي الشارع كان ثمة ملصق آخر ممزق من إحدى زواياه وتظهر عليه تارة وتنحسر تارة أخرى عبارة إنجسوك (الاشتراكية الانجليزية)، وذلك بحسب هبات الرياح. وفي

Books-sea.com

الأفق البعيد كانت تُحوم طوافة بين السطوح تقترب تارة وتبتعد تارة فتبدو أشبه بخنفساء زرقاء، ثم تنطلق منعطفة في مسار آخر. ولم تكن هذه الطوافة غير دورية شرطة تتلصص على الناس عبر النوافذ، غير أن الطوافة لم تكن ترهب الناس كما ترهبهم شرطة الفكر.

كان الصوت المنبعث من شاشة الرصد ما يزال يكرر إحصائيات إنتاج الحديد الخام ويعيد نبأ تحقق أهداف الخطة الثلاثية التاسعة. وكان الجهاز يرسل ويستقبل في آن واحد، فبإمكانه التقاط كل صوت، يصدر عن ونستون، يتجاوز حد الهمسات الخافتة، فضلاً عن أنه يبقى مراقَباً بالصوت والصورة ما دام موجوداً في مدى رؤية هذه الشاشة المعدنية. ولم يكن هنالك بالطبع من طريقة لمعرفة ما إذا كنت في مرمى المراقبة أم لا في أية لحظة. أما كم مرة أو كيف يمكن أن تخترق شرطة الفكر حياتك الخاصة فهذا أمر لا يمكن التنبؤ به، وإن كان من المفروض أنها ترصد الناس جميعاً بلا انقطاع، إذ باستطاعة هذه الشرطة أن تدخل، متى شاءت، على خط أيّ كان. كان عليك أن تعيش، بحكم العادة التي تحولت إلى غريزة، مفترضاً أن كل صوت يصدر عنك مسموع وأن كل حركة مرصودة.

وقف ونستون مديراً ظهره لشاشة الرصد، فقد كان يظن أن هذا أسلم عاقبة بالرغم من أن أمر المرء يمكن أن ينكشف من ظهره أيضاً. وكان مركز عمله يبعد مسافة كيلومتر واحد عن وزارة الحقيقة، التي يرتفع مبناها ذو اللون الأبيض وسط منظر طبيعي كالح. وفكّر ونستون وفي نفسه شيء من التقزز والامتعاض، «أهذه هي لندن المدينة الرئيسية في القطاع الجوي رقم واحد؟ وثالث أكبر مقاطعات أوقيانيا سكاناً». لقد حاول جاهداً أن يسترجع بعضاً من ذكريات الطفولة محاولاً أن يتبيّن ما إذا كانت هذه هي صورة لندن في كل الأوقات؟ أتراها كانت بمثل هذه الطرقات المزدحمة و المنازل المتهالكة؟ أكانت على هذه الحال في القرن التاسع عشر، حيث تظهر على جوانبها دعائم من الخشب،

Books-sea.com

ونوافذها مرقعة بقطع من الكرتون وسقوفها من صفائح الحديد المطعّج، وأسوار حدائقها مهدّمة ونافرة في كل الاتجاهات؟ أكانت موجودة تلك الأماكن التي أحدث القصف فيها حفراً كبيرة تعبق بالغبار، وتبدو للعين أوراق الصفصاف مختلطة بأكوام النفايات، وقد ظهرت هناك مجموعة من الأكواخ الخشبية أشبه بأقفاص الدجاج؟ ولكن عبثاً حاول، فلم يكن باستطاعته أن يتذكر شيئاً عن ذلك الماضي: إذ لم يبق له من ذكريات الطفولة إلا صور غير واضحة المعالم.

كانت وزارة الحقيقة - مينيترو في اللغة الجديدة - تختلف اختلافاً بيّناً في مظهرها عن أي بناء آخر تقع عليه العين، فهي بناء هرمي ضخم من الأسمنت الأبيض اللامع، يرتفع عالياً يناطح السحاب، طبقة فوق طبقة، ثلاثمائة متر في السماء، ومن مكانه، كان باستطاعة ونستون أن يقرأ على الحائط الأبيض كتابة ذات أحرف كبيرة بارزة، هي شعار الحزب المؤلف من جمل ثلاث:

الحرب هي السلام

الحرية هي العبودية

الجهل هو القوة.

كانت وزارة الحقيقة تتألف، حسبما يقال، من ثلاثة آلاف غرفة فوق الأرض، فضلاً عن أقبية تابعة لها تحت الأرض. ولم يكن في لندن سوى ثلاث بنايات شبيهة بها من حيث المظهر والحجم، وهذه البنايات كانت تحجب ما حولها من منازل، ولذا كان من الممكن لمن يقف فوق سطح مبنى النصر أن يرى البنايات الأربع في آن واحد. وكان يشغل هذه البنايات أربع وزارات تشكّل الجهاز الحكومي، فوزارة الحقيقة تختص بشؤون الأخبار ووسائل اللهو والاحتفالات والتعليم والفنون الجميلة، ثم وزارة السلام التي تُعنى بشؤون الحروب، ثم وزارة الحب وهي المسؤولة عن حفظ النظام وتطبيق القانون، ثم أخيراً وزارة الوفرة وهي ترعى الشؤون الاقتصادية.

Books-sea.com

كانت وزارة الحب في الواقع مصدرا للرعب والخوف، فهي بناء بدون نوافذ على الإطلاق. لم يسبق لونستون أن دخل هذه الوزارة، بل لم يحدث أن اقترب منها حتى مسافة نصف الكيلومتر، إذ كان لا يسمح بدخولها إلا في مهمّة رسمية، وحتى هذا الدخول يكون عبر سياج من الأسلاك الشائكة والأبواب الحديدية مروراً بمرابض للمدافع والرشاشات المخيفة، كما أن الطرقات المؤدية إلى المبنى كانت دائماً مراقبة من قبل حرس ذوي وجوه كالحة يرتدون بزات سوداء ويحملون الهراوات المدببة.

استدار ونستون بعد أن رسم علامات التفاؤل التام على وجهه، وهو ما كان يُستحسن فعله عندما يواجه المرء شاشة الرصد، واجتاز الغرفة إلى المطبخ الصغير، إذ فاته تناول طعام الغداء في المطعم بسبب تأخره في الوزارة. وكان يعلم أن المنزل خالٍ من الطعام إلا من قطعة خبز سوداء كان تركها لتكون إفطاراً له في صباح الغد. تناول عن أحد الرفوف زجاجة تحتوي على سائل لا لون له وقد ألصق على الزجاجة ورقة كتب عليها «جن النصر». وكانت تنبعث من هذا الشراب رائحة مُمرضة أشبه برائحة الزيت كأنما هو كحول مستخرج من الأرز الصيني. ومع ذلك صبّ ونستون لنفسه بعضاً منه في كوب شاي ثم استجمع قواه وتجرّعه كما لو كان يتجرع دواء.

وفي الحال انقلب وجهه قرمزياً وسالت الدموع من عينيه، فقد كان الشراب شبيهاً بحامض الصوديوم، فضلاً عن أنه عندما ابتلعه شعر كما لو أنه ضُرب على مؤخرة رأسه بهراوة من المطاط. لكن بعد لحظات كانت حدة الألم الذي شعر به في جوفه قد خفّت، وأخذ الشعور بالراحة والانشراح يسري في جسده، وعندئذ مد يده إلى علبة السجائر وهي أيضاً تحمل اسم «سجائر النصر» واستل منها سيجارة، وما كاد يرفعها من العلبة حتى راح ما فيها من تبغ يتناثر على الأرض، فاستبدلها بأخرى كانت أحسن حالاً. ثم عاد إلى الغرفة فجلس إلى طاولة صغيرة كانت

Books-Sea.com

إلى يسار شاشة الرصد وفتح درجاً كان بها فأخرج ماسكة قلم ومحبرة ودفتراً صغيراً ذا ورق سميك وخلفية حمراء وغلاف رخامي اللون.

ولسبب ما، كان الجهاز في غرفة الجلوس موضوعاً في مكان غير اعتيادي، فبدلاً من أن يوضع، كما جرت العادة، عند نهاية الجدار حيث يستطيع كشف الغرفة كلها، وُضعَ الجهاز في الجدار الأطول مقابل النافذة، الذي كان في جانب منه تقعُّر خفيف جلس فيه ونستون. ولعل هذا التقعّر قد قُصد به أن يكون مكاناً لخزانة الكتب. وهكذا بجلوسه في ذلك المكان وظهره مُسندٌ إلى الوراء، كان ونستون خارج مدى رؤية شاشة الرصد، مع أن الجهاز كان باستطاعته التقاط ما يصدر عن ونستون من أصوات. وقد كان تصميم الغرفة وجغرافيتها هو الذي أوحى له وألهمه جزئياً بذلك العمل الذي كان ينوي القيام به في تلك اللحظة.

ولكن هذا الإيحاء كان مصدره أيضاً ذاك الدفتر الذي أخرجه من درج المنضدة وقد كان دفتراً جميلاً للغاية، إذ كان ورقه الناعم ذو اللون الأبيض، والذي أكسبه القِدم شيئاً من الاصفرار، من نوع تم التوقف عن إنتاجه منذ أربعين عاماً على أقل تقدير، ومع ذلك كان بالإمكان التكهن بأن الدفتر أقدم من ذلك. وكان قد عثر عليه معروضاً في واجهة حانوت خردوات صغير في حي من الأحياء الفقيرة (لا يتذكر اسمه أو موقعه)، وما إن وقعت عليه عيناه حتى تملكته رغبة عارمة في امتلاكه. ورغم أنه لم يكن مسموحاً لأعضاء الحزب بالتردد على مثل هذه الحوانيت العادية الكائنة في الأسواق الحرة، كما كانت تسمى، فلم يكن هذا القانون يطبق بصرامة، لأنه كانت هنالك أشياء كثيرة، مثل أربطة الأحذية وشفرات الحلاقة، يتعذر على المرء الحصول عليها بغير هذه الطريقة. وكان ونستون وهو في طريقه إلى هذا الحانوت يتلفت ذات اليمين وذات الشمال وهو يتوجس خيفة، بل ولم يدلف إليه حتى اطمأن إلى أن أحداً لا يراقبه، ثم اشترى الدفتر بدولارين ونصف الدولار، دون أن يكون لديه هدف محدد من وراء شرائه، وتأبط الدفتر مخفياً إياه بعناية وحمله

Books-sea.com

إلى منزله كمن يحمل إثماً، إذ كانت مجرد حيازة مثل هذا الشيء مدعاة للشبهة حتى لو كان خلواً من أي كتابات.

والفكرة التي راودته حينذاك هي أن يستعمله كمفكرة، ولم يكن في ذلك ما يخالف القانون (ليس لأن ذلك مسموح به بل لأنه لم يكن هناك قانون في الأصل يحدّد ما هي المخالفات). ومع ذلك إذا ما افتضح أمره فإنه كان حتماً سيعاقب بالإعدام أو السجن لخمس وعشرين سنة في معتقل من معتقلات الأشغال الشاقة. وضع ونستون ريشة في ماسكة القلم ثم مصّها قليلاً ليخلّصها مما علق بها. كان القلم أداة زخرفية قديمة نادراً ما استعمله حتى في التوقيع. لقد حصل عليه بشكل سري وبصعوبة بالغة إذ كان يشعر أن ورقاً ناعماً أبيض اللون مثل هذا الورق يجب أن يكتب عليه بريشة حقيقية لا أن يخربش عليه بقلم جف مداده. كان ونستون في الواقع غير معتاد على الكتابة باليد إلا في حال تدوين بعض الملاحظات القليلة، لقد كان معتاداً على أن يملي كل شيء على «الآلة الكاتبة الناطقة»، وهذه بالطبع كان من غير الممكن أن يسجل عليها ما يروم تسجيله في مفكرته. ثبّت الريشة ثم غمسها في المحبرة، وبدا كما لو كان متردداً في أمر ما لبرهة واحدة، وسرت القشعريره في أوصاله، فمجرد أن يخط بيده على الورقة كان يمثل له قراراً حاسماً وخطيراً، وكتب بأحرف صغيرة غير مقروءة جيداً على صدر الصفحة: **4 نيسان 1984**.

ثم اعتدل في جلسته، وقد تملّكه شعور بالعجز التام. فقبل كل شيء لم يكن متأكداً أن العام كان 1984، فقد يكون الزمان قريباً من ذلك التاريخ، لأنه كان متأكداً أن عمره لم يتجاوز التاسعة والثلاثين، وكان يعتقد أنه من مواليد 1944 أو 1945، ومع ذلك كان من المستحيل في هذه الأيام تحديد أي تاريخ مضى عليه سنة أو سنتان.

بعد ذاك راح يتساءل: لمن يكتب هذه المذكرات؟ أيكتبها للمستقبل؟ أم للأجيال القادمة؟ وأطرق للحظة وهو يفكر في هذا التاريخ

Books-sea.com

المشكوك في صحته والذي دوّنه في صدر الصفحة الأولى، وسرعان ما امتدت يده ليتناول قاموس اللغة الجديدة وبحث باهتمام عن كلمة «التفكير المزدوج»، فلأول مرة يستشعر خطورة ما أقدم أو ما هو مقدم عليه، وتساءل في نفسه كيف يمكن أن يتسنى له الاتصال بالمستقبل؟ إن مثل هذا العمل مستحيل في حدّ ذاته، إذ إن المستقبل إما أن يكون شبيهاً بالحاضر وبالتالي لن يتجاوب معه، أو مغايراً له وحينئذ لن يكون لتكهناته التي يعيش من أجلها أي معنى.

مضت لحظات وهو يحدق في الورقة التي أمامه ببلادة. وكانت شاشة الرصد قد انتقلت لإذاعة موسيقى عسكرية صاخبة، وقد تولاه الفزع ليس لأنه فقد القدرة على التعبير عما تجيش به نفسه فحسب، بل لأنه نسي كلياً ما كان يحيك في صدره ويهيّئ له نفسه منذ أسابيع. لقد كان يظن أنه لن يحتاج إلى شيء آخر غير الشجاعة والإرادة، إذ الكتابة أمر يسير ولا تحتاج إلى كثير عناء، وما عليه إلا أن ينقل ما كان يجول بخاطره لسنوات من حوارات طويلة مع النفس إلى الورق، تلك الحوارات التي كانت تعتمل في رأسه وتسبب له القلق وعدم الارتياح. بيد أنه في هذه اللحظة بدا له كما لو أن ينابيع هذه الأفكار قد جفّت، بل لقد بدأ يشعر بألم الدوالي في ساقه اليمنى، ولم يجرؤ على حكها خوفاً من أن تلتهب كالسابق. كانت الثواني تمضي بسرعة، ولكنه لم يكن يعي من حوله غير الصفحة البيضاء التي أمامه، والألم الذي في كاحله، وصوت الموسيقى الصاخبة وشعور خفيف بالدوار بتأثير شراب الجن.

وفجأة وجد نفسه يكتب، وقد تملكته حالة من الرعب. لم يكن يدرك تماماً ما كان يفعله. كان خط يده الشبيه بخط الأطفال يميل في تعرجات إلى أعلى وإلى أسفل وقد انفصلت الأحرف الأولى والنقط وعلامات الوقف عن الكلمات، وقد كتب ما يلي:

«**الرابع من نيسان 1984**، ذهبت إلى إحدى دور السينما وكانت جميع الأفلام التي تعرض أفلاماً حربية، وكان الفيلم الذي يلقى إقبالاً هو

Books-sea.com

ذلك الذي في مشهد منه سفينة ضخمة تتعرض وهي محملة باللاجئين لقصف بالقنابل في مكان ما من البحر الأبيض المتوسط، وقد سُرَّ المتفرجون بمنظر رجل ضخم يحاول النجاة بنفسه ويبتعد عن السفينة الغارقة فيما تلاحقه إحدى الطوافات. في بادئ الأمر بدا وكأنه سلحفاة تسبح في الماء بصعوبة، إلى أن أمطره رماة الطوافة بطلقات ملأت جسمه بالثقوب فاصطبغ البحر من حوله بالأحمر القاني، ثم غرق فجأة كما لو أن المياه قد تسربت داخله عبر الثقوب، وانفجر المشاهدون ضحكاً عندما كانت المياه تبتلعه. ثم رأيت قارب نجاة محملاً بالأطفال وتلاحقه طوافة، وقد جلست في مقدمة المركب امرأة في أواسط عمرها، ربما تكون يهودية، وكانت تحتضن طفلاً في الثالثة من عمره وهو يصرخ خوفاً وهلعاً بينما يدسّ رأسه بين ثدييها، وكأنه يريد أن ينفذ إلى داخلها، والمرأة تحيطه بذراعيها وتلاطفه رغم أنها كانت هي الأخرى ترتعد خوفاً ورعباً. لقد كانت تحاول طوال الوقت أن تحتضن جسده لعلّ ذراعاها تدرآن عنه طلقات مدافع الطائرة. في هذه اللحظة ألقت الطوافة قذيفة زنة 20 كيلوغراماً على القارب فغرق بمن فيه ولم يظهر منه غير ذراع طفل تطاير إلى أعلى في الهواء، وقد بدا أن الطوافة تحمل آلة تصوير في مقدمتها تبعت الذراع إلى أعلى، وهنا علا التصفيق من مقاعد رجال الحزب، غير أن امرأة من النساء الجالسات في مقاعد العمال أخذت تضرب الأرض برجليها وهي تصرخ: «لا يجوز عرض هذه المشاهد بحضور الأطفال»، واستمرت في ذلك حتى تدخّل رجال الشرطة وأخرجوها من القاعة. ولا أظن أن مكروهاً قد أصابها بسبب ذلك فليس ثمة من يأبه لما يقوله الفقراء».

هنا توقف ونستون عن الكتابة، وأغلب الظن أنه كان يتألم من الدوالي ولم يكن يدري ما الذي جعله يكتب مثل هذا السيل من الهراء. غير أن الشيء الغريب هو أنه بينما كان يقوم بذلك، إذا بحادثة تلمع بجلاء ووضوح في ذاكرته، إلى حد أنه انكبّ على كتابتها بلا تردّد، وقد

Books-sea.com